الرؤية النورسية للعلم الإيماني
ودوره في بعث الأمة الإسلامية

أ.د. زينب عفيفي شاكر(*)

تمهيد:

حين تخطى العالم الإسلامي الألفية الثانية بوحشيتها القاسية وحروبها المدمرة وصراعاتها المتباينة ووقف على أبواب ألفية جديدة تحمل أمل البشرية في بزوغ فجر جديد يعيد الأمن والسكينة والطمأنينة لنفوس البشر الهائمة في ضروب الفتن والضلالات والصراعات، في متاهات الشك والحيرة وفقدان الثقة في كل ما هو مقدس وإيماني من جراء هذا التقدم العلمي والتكنولوجي المذهل. من تمكين بعض فرضيات الفلسفات المادية من عقل وفكر مثقفيها وضرب مقدساتها ومعتقداتها بقوة ووحشية.. غير أن هذا الأمل الذي حلمت به البشرية طويلا ما لبث أن تبدد سريعًا من جراء اشتعال الحروب والصراعات الدينية والطائفية والعرقية والمذهبية والتي سادت في أنحاء متفرقة من عالم يعيش في أكثر بلدانه وعلى نحو كثر أم قل عدد من المسلمين مثلوا الإسلام في حضارته وثقافته وتسامحه وعدله أفضل تمثيل. ولم تكن مفاجأة للعالم الإسلامي أن يصحوا من ثباته العميق على مخطط تآمري يتهم فيه الإسلام والمسلمين في كل مكان بالإرهاب والعنف والتدمير جراء أحداث ١١ سبتمبر المروعة.(١)

وإذا كانت الأهداف الإمبريالية قد اعتمدت في القرن الماضي على هيمنة ثقافية واقتصادية وعسكرية مستخدمة آليات تكنولوجية متقدمة ووسائل اتصال فضائية مزيفة

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية- كلية الآداب – جامعة المنوفية – جمهورية مصر.
zeinabafifi1@yahoo.com

(١) السيد ياسين: الحرب الكويتية – عاصفة سبتمبر ص ٢٣، ١٢٩ – ميريت للنشر . القاهرة ٢٠٠٣ .

للوعي والفكر والثقافة، فإن هذه الأهداف قد بدت أكثر شراسة وعنفا منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، إذ اتجهت الإمبريالية إلى السيطرة السياسية والثقافية مستخدمة ما نجم عن الحداثة من آليات وأفكار وفلسفات مادية زعزعت الثقة في كل ما هو مقدس وإيماني. كانت خطورتها وقوة تأثيرها عميقة لأنها لم تلجأ إلى مواجهة مباشرة مع الدين وتحويل المسلمين عن دينهم فقد لجأت إلى هذه المحاولات في القرون الماضية وباءت جميعا بالفشل ولم تجن سوى الحقد والكراهية.

ولكنها اعتمدت طرقًا وأساليب للحياة مبينة مؤسسة ومقامة على حلول مادية لمشاكل وصراعات مادية، فالتقدم العلمي المذهل واكتشافات عصر الحداثة وما بعد الحداثة قد أغرت العالم بمحاولة تغيير الطبيعة البشرية واستبدال أجيال مستحدثة من العقول الالكترونية بالعقل الإنساني إلى استحداث بشر وفق معايير أفرزتها ثورات بيوجينية وبيوتكنولوجية وبيوطبية حتى توهم العلماء أنهم استطاعوا بانتخاب البشر توفير حياة سعيدة وصحة فائقة وأنهم قد حلوا مشاكل البشرية وصراعاتها، صحيح أن فكرة الإنسان السوبر فكرة داعبت خيال وعقول الفلاسفة والشعراء والأدباء منذ زمن بعيد فعالجها أفلاطون في مثله وتصور الإنسان الأكمل الذي يعيش في عالم الحقيقة، كما عالجها نيتشه وتصور أن هناك بشرا أفضل من بشر وأنه يمكن انتقاء السوبرمان ولا زالت البشرية في غيها تتصور أنها قادرة على تعديل حياة البشر وتوفير حياة سعيدة وصحة فائقة- حتى تساءل بعض المفكرين والكتاب هل أضحى عصرنا هو عصر النهايات بعد أن اشتدت وطأة العولمة الاقتصادية والثورة المعلوماتية وتعاظم الاستهواء الاستهلاكي وآليات تكديس الربح وشيوع البطالة -لاستبدال التكنولوجيا العلمية بالجهد البشري؟.[1]

كل ذلك كان سببا في تأليه العلم على حساب الدين والتقليل من أهمية التصديق الإيماني فلم تعد هناك أهمية حقيقية للإله -من وجهة نظرهم- ولا أي تأثير لوجوده، فالعلم قد اكتشف الكثير مما غمض على الإنسانية وهو المفسر الوحيد للحقيقة في هذا الكون، والتكنولوجيا هي العصا السحرية التي يسرت له حياته ولبت له معظم متطلباته واحتياجاته.

---

(١) فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ – ترجمة حسين أحمد أمين ص ٢١ وما بعدها، مركز الأهرام للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٣، فرانسيس فوكو ياما: نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ترجمة د. أحمد مستجير ص ١١٨، سطور ، القاهرة ٢٠٠٢

تنبه بديع الزمان سعيد النورسي منذ ما يقرب من مائة عام بثاقب ذهنه وسبق رؤيته ووضوحها إلى ما سوف يؤول إليه أمر العالم وما سوف يسود فيه من فوضى وتشويه وما سيخلفه عصر العلم وشيوع التيارات المادية المضللة والتي تحاول منذ آلاف السنين زعزعة الأركان الإيمانية للمؤمنين وإضلالهم بالأفكار الزائفة للعلوم إذ يقول: "وحيث إن الاعتراضات والشبهات المتراكمة حول الإيمان والقرآن التي يثيرها فلاسفة أوروبا منذ ألف سنة قد وجدت سبلها إلى قلوب المؤمنين فيهاجمون بها أهل الإيمان، ويحاولون زعزعة الأركان الإيمانية التي هي أساس السعادة الأبدية ومدار الحياة الباقية، ومفتاح الجنة الخالدة، فلابد إذن قبل كل شيء أن نزيد إيماننا قوة ونحوله من إيمان تقليدي إلى إيمان تحقيقي"[1] أي إيمان يتعلق بضرورة قيام الإنسان بتأمل دلائل وإشارات القرآن الكريم المتعلقة بالقدرة والإرادة الإلهية والسارية في الكون كله بقوانينه وكائناته وجزئياته وكلياته.

لاشك أن هذه الدعوة التي جاء بها النورسي إنما كانت تشير إلى بشائر ظهور علم جديد يحق لنا أن نطلق عليه مسمى العلم الإيماني وهو علم له منهجه وأصوله ومبادئه. فما هي حقيقة هذا العلم؟ وما هي طبيعته كما عرضها النورسي في رسائله؟ وما هي علاقته بالكون والطبيعة؟ وهل يمكن استنباط رؤية مستقبلية من استقراء رسائل النورسي تدفع المجتمع الإسلامي إلى التقدم العلمي والالتزام الإيماني والرقي الأخلاقي؟؟ باختصار شديد هل يمكن بعث الأمة الإسلامية وإعادة صياغة حاضرها ومستقبلها بالاعتماد على ذلك العلم الإيماني الذي دعا إليه بديع الزمان سعيد النورسي من خلال قراءة عصرية دقيقة لكتاب الكون كما أفاض في شرحه وتفسيره في رسائل النور؟؟

مفهوم العلم الإيماني وماهيته وأبعاده (رؤية نورسيه):

إذا كان العلم بمفهومه الدلالي يعد ركنا أساسيا لأي مشروع نهضوي حضاري فإن العلم ببعده ومرجعيته الإيمانية التوحيدية يعتبر الركيزة الأساسية للنهضة الإسلامية التي دعا إليها النورسي وفي ذلك يقول "إن حكمة مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه هي معرفة خالق الكون سبحانه، والإيمان به والقيام بعبادته، كما أن وظيفة فطرته وفريضة ذمته هي: معرفة الله والإيمان به[2] فثمرة الوجود الإنساني في غايته هي معرفة

---

(١) النورسي الشعاعات ، ترجمه إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر استانبول ١٩٩٣، ص ٢١٤.

(٢) النورسي: الشعاعات: ص ١٣٥.

الله وهي حقيقة الحقائق "من عرف الله حق المعرفة وملأ قلبه من نور محبته فسيكون أهلاً لسعادة لا تنتهي ولنعمه لا تنضب وسينالها إما فعلاً وواقعًا أو استعدادا وقابليه[١] ورغم أن البشرية من الممكن أن تتقدم وتزدهر وترقي بالتطور العلمي والتكنولوجي، إلا أن هذا التقدم والازدهار سوف يكون هشًا وشكليًا ما لم يتضمن جوهرة بعدًا إيمانيًا خالصًا لأن هذا أعلى مرتبة للإنسانية- كما يؤكد النورسي- هي مرتبة معرفة الله وجوهرها هذا الإيمان "وأن أزهى سعادة للإنسان والجن، وأحلى نعمة هي محبة الله من تلك المعرفة"[٢].

هذا المفهوم الجديد للعلم الإيماني الذي أشار إليه "النورسي" واستوحى مضمونه من القرآن الكريم والذي جعل الوحي والعلم في إطار واحد وعلى درجة عالية من الاهتمام بحيث ينفذ الوحي والإيمان إلى العالم فيميزه ويجعله حقيقة لاشك فيها، كما يؤكد مكانته السامية وأثره في مختلف مناحي الحياة.. سيكون هو الدعامة الأساسية لمستقبل هذه الأمة وهو الشعاع الذي سينير لها الطريق وينتشلها من غياهب ظلمات الجهل وضلالات الإلحاد. ومع تأكيد النورسي على أهمية هذا التوجه، إلا أنه يشير أيضا إلى حقيقة أخرى وهي الإيمان بالقوانين والأسباب المضطردة في الكون ومحاولة الانسجام معها وعدم الخروج عليها وفي ذلك يقول "أن هناك طاعة وعصيانا تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية" ويؤكد أن من يريد أن يشق طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة فلن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي، مالم تكن الحركة منسجمة مع القوانين النظرية التي تحكم الكون"[٣].

من الواضح أن الإمام النورسي لم ينظر إلى العلم بمفهومه الدلالي فقط ومنفصلا عن التقوى والإيمان فقط، لأنه اكتشف بتأمله ونورانيته أنه إذا اعتمد على الكتاب الكوني فقط فلن يتمكن من اكتشاف الحقيقة العظمى والوجود الإنساني، كما أنه لم يقف عند حدود كتاب الوحي فقط مغفلا كتاب الكون وأنه رأى أن ذلك يبعده عن

---

(١) النورسي: الكلمات ص٢٨٩، ترجمة: إحسان قاسمي الصالحي، سوزلر للنشر ١٩٩٢.

(٢) النورسي: المكتوبات ص ٢٨٩. ترجمة: إحسان قاسمي الصالحي، سوزلر للنشر ١٩٩٢.

(٣) النورسي: اللمعات ص٢٥٧، ترجمة: إحسان قاسمي الصالحي، سوزلر للنشر ١٩٩٢ المكتوبات ص٦١١.

مفهوم العلم بمعناه الدلالي الذي لاشك له دوره العظيم في تقدم المسلمين وهو الركيزة التي ستنتشلهم من الجهل والتخلف والانحطاط. ولذلك فإنه يؤكد أن الكتابين معا هما المدخل الصحيح لمعرفة عظمة هذا الكون بمخلوقاته وأركانه وموجده[١]، ويتساءل هل يمكن إغفال دور صاحب الرسالة النبوية التي جسدت مضامين الوعي بالوحي، والوعي بالكون وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم في الواقع أفضل تجسيد وتحقيق وكان مثلا يحتذى به؟

ويرد على ذلك بقوله "إن لكل كمال، ولكل علم، ولكل تقدم، ولكل فن- أيا كان- حقيقة سامية عالية، وتلك الحقيقة تستند إلى اسم من الأسماء الحسنى وباستنادها إلى ذلك الاسم نجد ذلك الفن، وذلك الكمال، وتلك الصنعة، كل منها له كماله ويصبح حقيقة فعلا".[٢]

يربط النورسي إذن بين الحقيقة الكونية والحقيقة القرآنية ممثلة في القدوة والنموذج العملي الواقعي وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول "أما المعجزة الكبرى للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وهي القرآن الكريم ذو البيان المعجز، فلأن حقيقة تعليم الأسماء -أسماء الله الحسنى - تتجلى فيه بوضوح تام، وبتفصيل أتم، فإنه مبين الأهداف الصائبة للعلوم الحقة وللفنون الحقيقية ويظهر كمالات الدنيا والآخرة وسعادتها فيسوف البشر إليها وبوجهه نحوها مثيرا فيه رغبة شديدة[٣].

العلم في الإسلام إذن دعامة له، وقاعدة رسالته والقرآن مصدر العلوم والمعارف وأداة لنشر العلم وتوجيه العلماء وهذا ما أكده النورسي بقوله: "إن الخطاب القرآني يخاطب كل طبقة من طبقات البشر في كل عصر من العصور وكأنه متوجه إلى تلك الطبقة بالذات إذ لما كان القرآن يدعو جميع بني آدم بطوائفهم كافة إلى الإيمان الذي هو أسمى القضايا وأدقها، وإلى معرفة الله وأنوارها، وإلى الأحكام الإسلامية التي هي أهم المعارف وأكثرها تنوعا... إن الخطاب القرآني يوقفنا على الترجمة الأزلية لهذه الكائنات.[٤]

---

(١) أ.د. عبد العزيز: برغوث موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف ص ٣٨، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي . إستانبول ١٩٩٨.

(٢) النورسي: الكلمات ص ٢٩٠.

(٣) النورسي: الكلمات ص ٢٩٢.

(٤) النورسي: كليات رسائل النور: الكلمات ص٢٤، ٢٧ .

يشير النورسي إلى الهدف الغائي للعلم مؤكدا أن العلم الذي يكشف لنا الغاية الإلهية من خلق الكون والهدف النهائي من هذا الخلق هو نفسه مهمة الإنسان ووظيفته وعبادته كذلك، ولذا يوجه الخطاب القرآني الأنظار والعقول إلى هذه الغايات ويحث الإنسان على الوصول إلى هذه الحقائق عن طريق العلم وعن طريق التقدم وقد راعي في توجهه مكونات الإنسان وتكوينه المادي والروحي والعقلي والحسي ولقد تمثلت رؤية النظر النورسية في فهم هذا الكون من خلال اعتباره كتابا مقروءً يحاول فيه الإنسان بسائر قواه كشف غوامضه وتفسير ظواهره متسلحا بكتاب الله (القرآن).

وفي تفسيره العصري للعلم والتقدم العلمي يشير إلى العلاقة التبادلية بين الكتابين لأن القرآن كشف عن القوانين السارية في الكون، لذا فهو المصدر الحقيقي للتقدم يقول "إن القرآن المعجز البيان الذي بين بقواعده من كتاب العالم- قوانين الله العميقة الجارية بيد القدر، المسطرة بقلم الحكمة على صفحة الوجود، فيحقق بأحكامه العادلة رقي البشرية وسمو نظامها، ودقة اتزانها فأصبح حقًا مرشدًا وهاديًا إلى سواء السبيل".[١]

حاول النورسي أن يواجه تحديات تقدم العلوم العصرية ويجابه الهجوم المتزايد على الإسلام باسم العلم والتقدم والإدعاء بالتناقض بين معطيات العلم وحقائق القرآن بأن قام بدراسة العلوم الفيزيائية والبيولوجية الرياضية وغيرها من العلوم العصرية وقد بدأ تناوله لكتاب الكون بتساؤل هام وهو ما هي حقيقة هذا الكون؟ ولماذا نبدأ به؟ وهل فعلا هناك تناقض بين معطيات العلم ومعطيات القرآن.؟؟

يجيب النورسي موضحًا بعض هذه الحقائق "إن النظر إلى ما سواه تعالى لابد أن يكون بالمعنى الحرفي وبحسابه تعالى، وإن النظر إلى الكائنات بالمعنى الأسمى أي بحساب الأسباب خطأ، ففي كل شيء وجهان: وجه إلى الحق، ووجه إلى الكون فالتوجه إلى الوجه الكوني لابد أن يكون حرفيا وعنوانا للمعنى الأسمى الذي هو جهة نسبته إليه تعالى مثلا لابد أن يرى النعمة مرآة للأنعام والوسائط والأسباب مرآة لتصرف القدرة".[٢]

---

(١) النورسي: صيقل الإسلام محاكمات ص ٢١.

(٢) النورسي: المثنوي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. مطبعة الزهراء ، الموصل ١٩٨٨.

يمتلك النورسي في نظرته الكونية ووفقا للنص السابق قدرة تحليلية عميقة ومنهجًا عصريًا وبعدًا إيمانيًا قادة من قراءة القرآن إلى قراءة الكون وعلمه التأمل والنظر والبحث عن المعاني مستخدما عقله وقلبه في عملية القراءة هذه والتي قادته إلى أن لكل شيء في الوجود وجهان: وجه إلى الحق، ووجه إلى الكون فالحقيقة واحدة. إذا نظرنا إليها من زاوية الكون فلابد وأن يكون المعنى حرفيا غير أن هذا المعنى سوف يكون عنوانا للمعنى الأسمى الذي هو جهة نسبته إليه تعالى. إذن هناك علاقة متبادلة بين القرآن وبين الكون، فالكون يحتاج إلى القرآن في فهم معناه وتفسير أسبابه ونواميسه، والقرآن بآياته المتعلقة بالظواهر الطبيعية ونظامها وتغيراتها الغائية والقصدية يقوم بدور المفر والشارح للكون وهو -أي القرآن- الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية ، ومعز كتاب العالم، وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض، وكذا هو مفتاح لحقائق الشئون المضمرة في سطور الحادثات".[١]

إن الكون بأكمله هو دليل القدرة الإلهية وهو بآياته ودلائله وأنظمته ونواميسه في تماسكها وانسجامها دليل الحكمة والعناية الإلهية فكأن الكون "قرآن مجسم"[٢] بتعبير النورسي وهذا يعني أن الكون يعبر عن نفس الحقائق التي يعبر عنها القرآن، لكن بينما القرآن صادر عن صفة الكلام (كلام الله)، صدر الكون عن صفة القدرة. وهكذا فالكائنات مفسرات لآيات القرآن الحكيم[٣] أما الوظيفة الرئيسية لكتاب الكون فهي القيام بتعليم الذين يقرأونه وتوجيه أنظارهم إلى كاتبه وإلى صفاته. فالغاية من وجود الإنسان (العالم الأصغر) في هذا الكون (العالم الأكبر) هو معرفة ربه خالق جميع الموجودات وعبادته.[٤]

وهكذا بواسطة هذا الفكر التأملي في كتاب الكون وكتاب الكلام (القرآن) يكتسب الإنسان في هذا العصر ما يصبو إليه النورسي وهو الإيمان الحقيقي وتنجلي حقيقة

---

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص ٢٢، تحقيق إحسان قاسم الصتلحي، استانبول، سوزلر للنشر ١٩٩٤.

(٢) النورسي: الشعاعات ص ١٨٨.

(٣) النورسي: المثنوي العربي ص١٠٩.

(٤) النورسي: الشعاعات ص ١٣٥.

العلم الإيماني في أزهى صوره. كما يصبح الإيمان العلمي هو أسمى ما تسعى إليه البشرية لأنه وسيلة التقدم والرقي والاستخلاف.

ويؤكد أنه لا تناقض بين العلم وبين الدين بل إننا أن استهدفنا معرفة معاني هذه الكلمات ومعاني هذه الصفحات بالطريقة القرآنية فستزداد معرفتنا بالله ويؤكد أننا في هذا العصر نحتاج إلى أن نحول إيماننا من إيمان تقليدي إلى إيمان تحقيقي.

للعلم عند النورسي أبعادا كونية ودينية واجتماعية وتربوية. فهو يوجه الإنسان إلى التأمل والنظر الكوني ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥) كما يدفع النفس إلى التفاعل مع الحياة والواقع الوجود، ويؤكد أن إخراج العلم عن مضمونه الاجتماعي ووظيفته التربوية الروحية الإعمارية يجنح به إلى التصورات والتأملات الخيالية البعيدة عن التأثير في فطرة الإنسان وواقعه وحياته.

ولقد كان للنورسي رؤية مستقبلية لما سيؤول إليه أمر العالم الذي حصر العلم في نطاق الوجود الكوني بعيدا عن العمق الروحي والاجتماعي إذ يقول "إن البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنساب إلى العلوم وتنصب إلى الفنون وستستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة"[١]

ورغم إيمانه بأن العلم هو المدخل الحقيقي لرفع شأن الأمة وتجديد فاعليتها وحيويتها إلا أنه لم يتناوله بمعزل عن التقوى والإيمان والسنن والأسباب فجعله موصولاً بهم حيث يؤكد أن "تحقيق العبودية لله تعالى، والسيادة في الأرض عبر الانسجام مع سنن الله الكونية والتشريعية والاستمتاع بخيرات الأرض طاعة وشكرا، والاستعداد للقاء الله هو الوظيفة الوجودية للإنسان في عالم الشهادة".[٢]

ويشمل العالم بالمعنى العام وكما جاءت رسائل النور وتناوله التدريس جميع العلوم الكونية مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وعلم الفضاء إلى جانب علم التاريخ والاجتماع والإنسان وغيرها من العلوم الاجتماعية وفلسفات كل هذه العلوم والإطلاق وعلم النفس والعلوم الإسلامية (تفسير وحديث وفقه وكلام)

---

(١) النورسي: الكلمات ص ٢٩٢.

(٢) النورسي: إشارات الإعجاز ص ٢٤٠- ٢٤١. وانظر أيضا الطيب برغوت: منهج النبي (صلى الله عليه وسلم) في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها. ط١. منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي ١٩٩٦ ص ٨١.

وقد اهتم النورس بإيضاح أثر القران والسنة في تعريف وتوضيح العلوم الكونية بمفهومها التقني وأظهر بشكل دقيق الرابطة القوية بين الوحي والعلم ورغم أن الوحي والعلم ليسا شيئا واحدا إلا أن وجود علاقة قوية ودقيقة بينهما يدل على أن الوحي أكسب العلم بعدًا جديدًا، وهذا البعد من منظور القرآن هو بلا شك البعد الإيماني يقول تعالى ﴿..فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٢٦) وقوله ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١). فالقرآن تناول الوحي والعلم في إطار واحد لأن الوحي ينفذ إلى العلم وينيره ويجعله حقيقة وبهذا يظهر البعد الإيماني الذي أكسبه الوحي للعلم، كما أن الموقف الذي يكتسبه العالم داخل علاقة الوحي (الإيمان- العلم) تجعله أكثر قربا من الله ومعرفة به وخشية منه "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، هذا التوجه النورسي يعد ردًا عمليًا على التأثيرات الضارة التي أحدثتها الفلسفات المادية والتي ألهت العلم وفسرت الوجود تفسيرا ضعيفا" وفي ذلك يقول روجيه جارودي "أن المفهوم الحالي للعلم والقائم على الفلسفة الوصفية، تلك النظرة المبتسرة للعقل التي تجعل من العلم -بمعزل عن الحكمة والإيمان- غاية لذاته ولا تطرح بعد سؤال لماذا؟ ولا تتساءل عن الهدف، ولا عن الحدود المسلمات ، هذا المفهوم يدفع البشرية إلى الانتحار ، ويبين جارودي الحاجة إلى الإيمان قائلا "لم تكن الحاجة يوما ما ملحة أكثر من الآن لإحياء ونشر هذا المفهوم أو التصور الكامل للعقل، والذي لا يفصل العلم عن الحكمة ولا عن الإيمان، وذلك إيذانا بمرحلة جديدة من حياة النوع البشري".[١]

ولقد اهتم النورس في رسائله بتناول الكثير من العلوم الكونية لكن الواضح أنه لم يتناولها تناول العالم المجرب وإنما تناولها تناول المصلح الذي ينبه العقول والأفئدة إلى علاقة الوحي بالعلم ودور العلم الإيماني، والإيمان العلمي في إدراك الحقيقة المطلقة فقد تناول على سبيل المثال الدورة الدموية واستفاض في شرحها ووظيفتها لكنه لم يتناولها كتناول عالم الأحياء (البيولوجيا) بل استخدم ذلك للوصول إلى الهداية أو النجاة بالإيمان يؤكد ذلك في مذكراته بقوله "لقد كانت محفوظاتي وتكراراتي (أي الكتب التي كان يعكف على قراءتها في غرفة بقصر والي وإن طاهر باشا) هذه عتبة للصعود إلى حقائق القرآن، ثم صعدت إلى القرآن ونظرت فشاهدت إن كل آية قرآنية

---

(١) روجية جارودي: الإسلام في الغرب ص١١، ١٢.

تحيط بالكائنات، وصار القرآن كافيا لي، ولم تعد بي حاجة لأي كتاب آخر" كما يقول "فالكلمات والأنوار المستقاة من القرآن الكريم إذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها بل أيضا مسائل قلبية وروحية، وأحوال إيمانية.. فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية"[١].

مفهوم الطبيعة عند الفلاسفة الماديين وعند النورسي (مشروع تأسيس فلسفة علمية إيمانيا)

يقول النورسي أن الفلاسفة وأرباب الضلالة والغفلة قد شعروا بوجود اللوح المحفوظ للقدرة الإلهية الفاطرة، وأحسوا بمظاهر ذلك الكتاب البصير للحكمة الربانية وإرادتها النافذة في الأشياء، ولمسوا صورة ونماذجه، إلا أنهم أطلقوا عليه اسم "الطبيعة- حاشى لله فأخمدوا نوره".[٢]

ويعقب النورسي: ولكن ما نطلق عليه تعبير واسم الطبيعة: هي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون الذي هو الشريحة الكبرى للخلق، وهو متمم للشريعة المعروفة والصادرة عن صفة الكلام والتي تنظم سلوك وتصرفات الإنسان "فهي شريعة فطرية وتجلى للإرادة الإلهية في إدارة الأكوان ولكن يسمى خطأ بالطبيعة، إما ما يسمى بالقوانين الطبيعية وهي عند أصحاب العلوم المادية والفلسفة الطبيعية (السببية والتصرف) فإنها قوانين لا تملك وجودا ذاتيا أو ماديا، بل هي مجرد تجليات الإرادة الإلهية وهي موجودة كعلم فقط.[٣] وهو تعبير عن قيام القدرة الإلهية بالعمل وكما قال في تعريفه إن كان لابد أنها مالكه لوجود حقيقي خارجي فإن هذا الوجود هو: صنعة صانع ولن يكون صانعا، وهو نقش ولن يكون نقاشا، ومجموعة أحكام ولن يكون حاكما وشريعة فطرية ولن يكون شارعا، وستار مخلوق للعزة ولن يكون خالقا، وفطرة منفعلة ولن يكون فاطرا فاعلا، ومجموعة قوانين ولن يكون قادرا، ومسطر ولن يكون مصدرا.[٤]

---

(١) النورسي: المكتوبات ص ٤٥٧.

(٢) النورسي: الكلمات ص ٢٩٠.

(٣) شكران واحده: كتاب الكون: موقعه وتطوره في فكر بديع الزمان. ص ٥٤٥ إلى ص ٥٦٠. المؤتمر الرابع لبديع الزمان سعيد النوريسي. استانبول ١٩٩٨.

(٤) النورسي: اللمعات ص ٢٨٣.

حاول النورسي تقريب مفهوم العلم الإيماني -كما استنبطه من كتاب الكون وكتاب الله - من مفهوم الطبيعة الذي استعمله الفلاسفة الماديين ليثبتوا لها قوة وفاعلية نافيين أي تأثير وفاعلية للقوة الإلهية ففي جوابه عن تساؤل ما هي الطبيعة والنواميس والقوى التي تحكمها يقول النورس: أن الطبيعة مسطر لا مصدر، ومطبعة لا طابع، وقوانين لا قوة بل إنما هي شريعة نظرية إلهية أوقعت نظاما بين أفعال أعضاء جسد عالم الشهادة، كما أن الشريعة محصل وخلاصة قواعد الأفعال الاختيارية.. فكما أن الشريعة والنظام أمران معقولان اعتباريان، كذلك الطبيعة أمر اعتباري ملخص بعادة الله الجارية في خلقه... والحاصل أن الطبيعة صنعة الله تعالى وشريعته الفطرية، وأما نواميسها فمسائلها، وأما قواها فهي أحكام تلك المسائل"[(١)].

النورسي هنا يبرز الفروق الواضحة بين مفهوم القوانين الإلهية الكامنة في الطبيعة، وبين المفهوم المادي لها لكي يدحض الأساس الذي قامت عليه الحضارة الغربية بكل مفاهيمها المادية فيصبح هذا الأساس هشا ضعيفا وبالتالي يستطيع تأسيس فلسفة علمية إيمانية جديدة تتمشى مع تطور الحياة العصرية.

أبطل النورس في رسالة الطبيعة (اللمعة الثالثة والعشرين) أسس الفكر الطبيعي واثبت أن الكون لا يمكن أن تخلقه طبيعة عمياء صماء بكماء، وأن هذا الكون تستحيل فيه الصدفة، فإسناد الخلق للطبيعة هو خرافة صنعها الإنسان الضال عن منهج الله تعالى.[(٢)]

يقول في الكلمات "تأمل في بستان هذه الكائنات ... تر أن للصانع الجليل جل جلاله ختما خاصا بمن هو صانع كل شيء على كل مصنوع من مصنوعاته .... أنه يخلق من شيء واحد كل شيء ويخلق من كل شيء شيئا واحدا، فمن ماء النطفة بل من ماء الشرب يخلق ما لا يعد من أجهزة الحيوان وأعضائه، فهذا العمل لاشك أنه خاص بقدير مطلق القدرة/ ثم أن تحويل الأطعمة المتنوعة سواء الحيوانية أو النباتية- إلى

(١) النورسي: كليات رسائل النور ج٥ ص ١٥٢- ١٥٤ من إشارات الإعجاز.

(٢) النورسي: ص ٣١٢. وانظر أيضًا فاروق حمادة: الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي. منشور ضمن أعمال مؤتمر جهود بديع الزمان النورس في تجديد الفكر الإسلامي الرباط ١٩٩٩.

جسم خاص بنظام كامل دقيق، ونسج جلد خاص للكائن وأجهزة معينة من تلك المواد المتعددة لاشك أنه عمل قدير على كل شيء وعليم مطلق العلم".[١]

كما يؤكد أن الحقيقة المطلقة لا تحيط بها أفكار محدودة مقيدة، إذ لابد لها من نظر كلي كنظر القرآن لكي يحيط بها، ويرى أن الكون عبارة عن كتاب علمي واحد ذو فصول مترابطة ومتناسقة، وإن بدت للوهلة الأولى أنها مستقلة متباعدة من بعضها وعلى ذلك فالمعرفة لا تكون صحيحة بحيث تقنع الطفل وتطمئن إليها النفس إلا إذا جاءت من خلال معرفة كلية شاملة تحيط بجوانب هذا الوجود المتمثل في الإنسان والكون والحياة وخالق هذا الكون والعلاقة السارية فيما بينهم. ولكن كيف يمكن الوصول إلى هذه الحقيقة لقد اهتدى النورسي بفطرته الإيمانية إلى أن هذه الحقيقة الكلية التي يمكن من خلالها إدراك العلاقة السارية بين مكونات الكون الثلاثة- يمكن إدراكها في كلام الله (القرآن الكريم) فلو لم يكن القرآن هو كلام صانع هذا الكون ذاته لما أمكن أن يحوي بين دفتيه الصورة الكاملة الشاملة لوحدة هذه المصنوعات المترابطة والمتشابكة في تناسق عجيب. فالقرآن يبدأ بأن يعرفنا من هو الإنسان؟ وكيف خلق؟ وما هي خصائصه ومهامه في هذه الحياة، ويبصره بمبدئها ومنتهاها، ثم يعرفه على المظاهر الكونية المحيطة به، وعلى ما بينه وبينها من صلات بشكل شمولي إجمالي، كما ينبهه إلى ما في تلك المظاهر من السنن الراسخة التي لا تخضع لأي تطوير أو تغيير. فإذا أقبل الإنسان بعد هذه المعرفة الشمولية الكلية التي استقاها الإنسان من القرآن- ونظر في الكون لكي يفهم جوانبه ويتعمق في معرفته فإنه لن يضيع في متاهاته، ولن يضل في صورة الخادعة يؤكد النورس ذلك بقوله "أمعن ما شئت في تاريخ العلماء الغابرين أو العلماء المعاصرين، ممن اتخذوا من القرآن منهج معرفة لهم، ومفتاحًا لسياحاتهم الفكرية في أرجاء هذا الكون، فلن تجد فيهم من زجته معارفه في حيرة أو أقحمته اكتشافاته العلمية في مخافة أو وحشة، والعكس هو الصحيح كما مثلت لك من قبل.[٢]

---

(١) النورسي: الكلمات ص ٣٢٧ وما بعدها.

(٢) النورسي، ص٥٢٠ وانظر أيضًا د. سعيد رمضان البوطي. ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل. المؤتمر الرابع للنورسي ١٩٩٨. ص ٣٦٣- ٣٦٥.

أما عن مظاهر التقدم التكنولوجي ، فالنورسي يدعونا إلى عدم الافتتان بكل هذه المظاهر التقدمية لأن أصولها ومبادئها الكلية مثبتة في كتاب الله ولم يفعل الإنسان شيئا سوى أنه يكتشفها فقط مستعملا قدراته العقلية والعلمية التي حباه الله بها.

يقول الإمام أن الطائرة والكهرباء والقطار واللاسلكي وأمثالها من منجزات العلم والصناعة والتكنولوجيا الحديثة التي هي حصيلة التقدم الإنساني في مضمار الصناعة والعلم، أصبحت هذه الاختراعات موضع اهتمام الإنسان، وتبوأت مكانة خاصة في حياته المادية.. لذا فالقرآن الكريم الذي يخاطب البشرية لم يهمل هذا الجانب من حياة البشر، بل قد أشار إلى تلك الخوارق العلمية[١] معنى ذلك أن النورسي يؤكد على أن الحقائق العلمية الموجودة في القرآن لأنها من مصدر أزلي فهي لا تتبدل ولا تتغير لأنها شاملة وكلية ومحفوظة على الدوام ومهما حدث من اكتشافات علمية فهي تتفق مع ما ورد في هذا النص القرآني ولم يحدث أن تغيرت هذه الحقائق وما ذلك إلا لأن القرآن يحوي مبادئ علمية كلية ثم يكتشف الإنسان على مر الزمان كل ما يتعلق بهذه الحقائق في صورة جزئية مستمرة طوال الزمن. وهذا يدل على ألوهية هذه الحقائق وعدم تبدلها رغم تغير الظروف والأحوال. وهذا دليل على عبقرية العلم في القرآن وصلاحية المبادئ العلمية لكل زمان ومكان لأنها كلية شمولية وليست جزئية فردية.

إن العلم الذي يكشف لنا الغاية الإلهية من خلق الكون (العلم الإيماني) والهدف النهائي من هذا الخلق هو نفسه مهمة الإنسان ووظيفته وعبادته ولذلك يوجه الخطاب القرآني الإنسان إلى هذه الحقائق عن طريق العلم والتقدم وقد نبهه القرآن إلى غريزة حب الاستطلاع الكامنة في نفسه، كما حبب إليه العلم ونفره من الجهل، وأمده بطاقة عقلية وغريزية هائلة تحقق له مطالبه المادية والروحية وكانت آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم هي المصباح الذي أضاء له طريق الهداية وأنار له السبيل لتحقيق أهدافه في إطار إيماني عقيدي. وفي ذلك يخاطب الإمام النورسي الإنسان قائلا له "إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة فأظفر بمعرفة الله، إذ حقائق الموجودات كلها إنما هي شعاعات اسم الله الحق ومظاهر أسمائه الحسنى وتجليات صفاته الجليلة".[٢]

---

(١) الكلمات ص ٢٧٨ وانظر أيضا النورسي: الكليات ص ٢٩٦.

(٢) النورسي: مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ص٥٦. الملاحق في فقه دعوة المؤتمر. ترجمة

الإشكالية المعاصرة للعلم ومناهجه والرؤية النورسية لحل هذه الإشكالية:

لاشك أن التقدم الهائل في العلوم المختلفة وما ترتب عليه من نتائج وتكنولوجيات غيره والوجه الحضاري للعالم كان له أثره الخطير في تأليه العلم على حساب الدين بل أكثر من ذلك توجيه الوعي الإنساني إلى وضوح وموضوعية الحقائق العلمية وغموض وإبهام حقائق الإيمان والاعتقاد... غير أن هذا الوعي سرعان ما تنبه أخيرا إلى هذا الوهم الذي عاش في ظله سنوات الحداثة إذ اكتشف أنه لا يمكن إثبات صحة النظريات العلمية وقوانينها تجريبيا، لأن فهم المعاني في العلوم الطبيعية يتم عن طريق تماسكها وترابطها النظري أكثر من توافقها العملي وانسجامها مع الحقائق ، إذ ليست النظريات نماذج ومقارنة للعالم من الخارج، بل هي مجرد طريق وأسلوب لتفسير الحقائق ولم يشغل العلماء أنفسهم بالبحث عن أسباب التماسك والترابط الموجود بين أجزاء الكون وظواهره وجزئياته وكائناته، بل نستطيع القول بأنهم عجزوا عن تقديم أسباب معقولة ومنطقية وواضحة لهذا الانسجام الكوني وفهم حقيقة الأشياء.

كان النورسي على وعي تام بأن هذا الغرور الذي أوهم أصحاب الفلسفات المادية بأن ما وصلوا إليه من حقائق علمية إنما وصلوا إليها لأنها متطابقة مع الواقع، هذا القول لم يكن صحيحا لأن تفسير ظواهر الكون وأموره بالنسبة لأي شخص هو اعتقاده حول هذه الظواهر أو الوقائع، وليس هو حقيقة الواقع ذاته، فما بالنا إذا كان العالم نفسه جزء من هذا الكون وعقله الذي يفسر به في احتياج دائم إلى معيار للحقيقة لا يمكن الشك فيه- وجد النورسي أن هذا المعيار هو "كلام الله"، "القرآن" والعقل البشري بفهمه السليم لهذا الوحي يستطيع تفسير حقائق الأشياء، يكفي أنه اكتشف أن هذا الترابط والانسجام الموجود في الكون إنما يشير إلى ذلك الشعاع الإلهي الساري في تلك الموجودات بأكملها وعلى ذلك فجميع الأشياء إنما هي علامات وآيات تشير إلى خالقها. يخاطب النورس الإنسان قائلاً :إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة ، فاظفر بمعرفة الله ، إذ حقائق الموجودات كلها إنما هي شعاعات اسم الله الحق، ومظاهر أسمائه الحسنى وتجليات صفاته الجليلة"[1]

إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلز للنشر القاهرة ١٩٩٥.

(١) النورسي: مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ، ص ٥٦ .

كان الحل العبقري الذي قدمه النورسي بمثابة الضوء الذي أنار الطريق لكل من ضلا وأضل غيره باسم العلم والتجريب والثقة العمياء فيهما. وقد تمثل في تفسيره الحرفي أو الكلي لنظام الكون وظواهره وهو مستمد أساسا من القرآن الكريم.

يعطينا النورسي مثلا حيا على ذلك من "نمو النبات"[1] فيقول عندما نسقي نبته بالماء فإننا نراها تنمو ولكي نفسر ذلك فهناك تأويلان:

أولهما: التأويل العلمي أو النظرة الاسمية كما يسميها النورسي الذي يؤكد أن الماء يسبب نمو النباتات. وهذا التفسير ينظر إلى الأشياء مستقلة عن صانعها وخالقها وهي مرتبطة بعضها ببعض تلقائيا وذاتيا.

والثاني: هو التفسير القرآني الذي يعلمنا بأن الله تعالى هو الذي يسبب نمو النباتات بالماء، ومعنى ذلك أن الأشياء غير قادرة ذاتيا على إمداد نفسها بالوجود وأن هناك رابطا كليا شاملا يربط بينهما وبين سائر الظواهر والأشياء. وقد سمى سعيد النورسي هذه النظرة باسم "النظرة الحرفية".

ولتفسير ذلك فإن فلاسفة العلم يؤكدون أن الماء يدخل في النبات ثم ينمو هذا النبات وهاتان حادثتان متعاقبتان زمانيًا ولكنهما منفصلتين وغير مرتبطتين، ويعترفون بأننا في الواقع لا نرى أن الماء يقوم بتنمية النبات، ولا يقول ما شاهده ورآه ولكنه يقول ما استنتجه من ملاحظته لهذه العملية أي أنه ينقل اعتقاده وتأويله لما حدث أمامه، وهذا بعيد عن أن يكون تأويلا كليا لأنه لو كان الماء عاملا وقوة وسببا لكان بإمكاننا ملاحظة هذه الفاعلية، إذن فنحن نستنتج، وما يقدمه العلماء ليس إلا تفسيرا اسميا وغير معقول للتجربة.. يبرر العلم إذن وصفه وتفسيره بأن النبات لا ينمو في غياب الماء ولكننا نؤكد أيضا أنه لا ينمو بعيدا عن "الشمس ولا التربة ولا الهواء ولا المجوعة الشمسية وغيرها من الأشياء. أي أن النبات لكي ينمو فهو بحاجة إلى الكون بأجمعه والذي يسبب نمو النبات هو خالق هذا الكون ومدبره، والكون بدوره يؤيد ويساند ما يعتقده الإنسان لوجود خالق لهذا النبات وغيره من الكائنات. ويؤكد النورسي من خلال تفسيره وتأويله الحرفي أن الماء والنبات بل جميع الأشياء إنما هي علامات وآيات تشير إلى خالقها

---

(١) د. يامنة مرمر. مكانة التأويل في العلم ص ٥١٥ ص٥٢٠. المؤتمر الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي. استانبول ١٩٩٨

وتدل عليه وفي ذلك يقول "... آيات تقود إلى معرفة الله وتشهد على صدق الوحي وحقيقته"[١].

لقد تنبه فلاسفة العلم مؤخرا إلى هذه الحقيقة وأدركوا زيف القول بأن التجربة هي المعيار للحقيقة العلمية وعندما عجزوا عن حل هذه المشكلة أنكر بعضهم وجود مفهوم الحقيقة نفسه، ولجأ البعض الآخر إلى القول بنسبية الحقائق وهذا إن دل على شيء إنما يدل على سقوط نظرية أن العقل وحده هو مصدر الحقيقة، بل لابد من مصدر يقيني آخر وهو الوحي وفي ذلك يقول "إن الخطاب القرآني يوقفنا على الترجمة الأزلية لهذه الكائنات... نعم إنه يمثل لسان الغيب في عالم الشهادة"[٢]

دور رسائل النور في تقوية الجوانب الروحانية وتدعيم مفهوم السببية :

يقف الإنسان المعاصر الآن وهو في مطلع القرن الحادي والعشرين حائرا وسط هذا الطوفان الهائل من الأفكار والثقافات والعلوم والمنجزات العلمية والقفزات الجينوميه وقد شعر إن إيمانه وثوابته تكاد تفلت منه جراء ما حققه العلم والتكنولوجيا من تقدم هائل وأن اعتقاده مهدد جراء هذا الطوفان المادي الهائل. وأصبحت إشكالية المسلم المعاصر التي يحاول المفكرون والمصلحون حلها هي كيف يمكن للمسلم أن يساوي بين إيمانه وعلمه وأن يتخذ من العلم طريقا للإيمان؟ كيف يمكنه العيش في توافق بين حقائق الإسلام وحقائق الكون والحياة التي كشف عنها العلم؟.

كان النورسي من أولئك المصلحين الذين وهبوا حياتهم لحل تلك الإشكالية ومواجهة سعار الفلسفات المادية والملحدة وقدم خلاصة فكرة وإيمانه في مؤلف رائع كتب له التاريخ تهاده خلود وهو رسائل النور... إذ عرض فيما يقرب من مائه وثلاثون رسالة ملامح مشروع ثقافي وحضاري مؤسس لإيمان معرفي علمي ولعلم يتخذ الإيمان دعامة وحصن وجداني منيع يواجه به كل إشكاليات التعارض بين العلم وحتميته وسببيته الصارمة، وبين ألإيمان بعمقه ونفوذه الوجداني أنه يرسم في رسائله المنهج العلمي الذي يبدأ به الإنسان في معرفة الكون والوجود ككل انطلاقا من قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣) بتصور

---

(١) الكليات ص٢٥٣، شكران واحدة: كتاب الكون ص ٥٤٥: ٥٥٠. المؤتمر الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي. استانبول ١٩٩٨.

(٢) النورسي: الكليات. الكلمات ص ٣٧٤.

الوجود مثلثا متساوي الأضلاع قمته الله سبحانه وتعالى وأما قاعدته في أحد طرفيها الكون وفي الطرف الآخر الإنسان، وسواء حاولنا أن نبدأ سيرنا وفهمنا لهذا الوجود من قاعدته أي أن تكون معرفة الكون والإنسان طريقنا للإيمان، أو أن يكون الإيمان طريقنا إلى معرفة الكون والإنسان فإننا لابد وأن ننتهي لا محالة إلى نفس النتيجة وهي إيمان يقيني كلي بتكامل ووحدة هذا الوجود.. لقد استطاع النورسي أن يرسم في رسائله صورة الإيمان الكوني العلمي، والعلم الإيماني ورفض كل الفواصل التي تفصل بين ما هو كوني وإنساني وإلهي، فالثلاثة عنده حلقات متصلة في سلسلة حضارية واحدة لا تتجزأ.

وإذا كانت قوانين السببية والجاذبية التي اكتشفها العلم قد فسرت الكثير من الظواهر وفتحت الكثير من الآفاق حيث استطاع العلماء باعتمادها في البحوث والتجارب حل الكثير من الألغاز الكونية والحياتية، إلا أننا يجب أن نعترف بأن صرامة السببية وقوة ضغطها على العقل قد حدت كثيرًا من انطلاقات الفكر والروح في المجالات الإيمانية والدينية، بل أنها عطلت قوى الإنسان الشعورية والحدسية عن أن تنطلق من المحسوس إلى المعقول ومن النهائي إلى اللانهائي من النسبي إلى المطلق الذي لا يحده شيء، لقد أدى طغيان السببية وهيمنة مناهجها الحتمية على عقول المفكرين والعلماء إلى شيوع نوع من التعليم الوحداني وسكن أصحاب النفوس المترددة إلى قانون السببية في حصرهم في دائرة حسية مغلقة ختمت على قلوبهم وعقولهم. ولذلك كان نقد النورسي لقانون السببية نقدا لاذعا فيقول "إن لم يسند خلق كل شيء إلى الواحد الأحد القدير ذي الجلال، واسند إلى الأسباب المادية، يلزم عندئذ أن يكون لأغلب عناصر العالم وأسبابه دخل وتأثير في وجود كل ذي حياة، ومثال على ذلك بيان استحالة اجتماع الأسباب المتضادة والمتباينة في جسم حشره صغيرة كالذبابة، وذلك لأن جسم الذباب له علاقة مع أغلب عناصر الكائنات الأخرى ومع مظاهرها وأسبابها المادية فإذا افترضنا جدلاً أن القدرة الإلهية لم توجدها ، فهذا تقتضي أن تحتشد كل هذه الأسباب المادية جنب هذا الجسم مباشرة عند إيجاده، بل يلزم أن تدخل في جسمه الضئيل، بل يجب دخولها- كما يقول النورسي- في حجيرة العين التي تمثل نموذج الجسم، لأن الأسباب إن كانت مادية فيلزم أن تكون قرب المسبب وداخله فيه وعندئذ يقتضي قبول جميع العناصر في جميع أركان العالم مع طبائعها المتباينة في ذلك المسبب دخولا ماديا، فهل يقبل أي عاقل هذا التصور. ويعقب النورسي: أفلا يخجل ويستحي من هذا القول حتى

أشد السوفسطائيين بلاهة"[١] إذن فهذا الخلق والإيجاد يسند للأسباب بعض خصائص الربوبية في الخلق والإيجاد.

أما عن علاقة السببية بالجانب الإيماني: فالحقيقة أن النورسي لا يرفض مبدأ السببية بل أنه يعتبرها الحصن الذي يحصن الكون ويمنعه من التفكك والانهيار هو عمل إلهي إعجازي يشهد بوجود وشعاع ساري من الأبد اللامحدود إلى كل الوجود، والمؤمن أمام هذا العالم الأبدي اللامحدود يشعر شعورا صادقا بأنه عالم استنهضته الإرادة الإلهية ورسمت خطوطه وتفاعلاته أسماء وصفات الذات الإلهية المبدعة، أن المؤمن كما يؤكد النورسي يتخذ من عالم الشهادة وسيلة ليتعرف على عالم أجمل وأقدس وأروع وهو عالم الأبدية واللانهائية.[٢]

وكمثال في تفسيره الإيمان العلمي لبعض ظواهر الطبيعة حين فسر ظاهرتا البرق والرعد فقال: هما آيتان ظاهرتان من جهة العالم العيني في أيدي الملائكة الموكلين على عالم السحاب لتنظيم قوانينه، ثم أن الحكمة الإلهية ربطت الأسباب بالمسببات، فإذا تشكل السحاب من بخار الماء المنتشر في الهواء، صار قسم حاملا للالكتريك المنفي، وقسم حاملا للالكترك المثبت فحينما يتقاربان يتصادمان دفعة فيتولد صدي الرعد، ولا تجري هذه الحالات إلا تحت نظام وقانون يتمثلها الرعد والبرق"[٣].

وعن تسخير الهواء والرياح لخدمة الإنسان يشير إلى الآية ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سبأ: ١٢). فهو يشير إلى أن سليمان قد قطع في الهواء ما يقطع في شهرين في يوم واحد. والآية في عمومها تشير إلى إمكانية قطع الإنسان لهذه المسافة في الهواء إذا استخدم القوانين الكونية والسنن الإلهية، وترك هوى النفس والكسل والتزم العمل منهجا والإيمان سبيلاً ومرشدًا.[٤]

إن السؤال الذي ما زال يلح على أذهاننا بعد هذا العرض الشامل لمفهوم العلم الإيماني هو هل يستطيع فكر الإمام النورسي الاستجابة لمتطلبات هذا العصر ويواجه

---

(١) النورسي: اللمعات: ص ٧٥ وما بعدها.

(٢) النورسي المثنوي العربي : ص ٩٢.

(٣) النورسي: الإشارات ص ١٤١ (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز): تحقيق إحسان الصالحي ١٩٩٢ دار سوزلر. استانبول.

(٤) النورسي: الكلمات ص٢٨٠ وأيضا إشارات الإعجاز ص٣٠١- ٣٠٤.

لتكتلات الثقافة المادية الإلحادية، والثورات البيوتكنولوجية الخطيرة التي تزعزع الثقة في كل ما هو ثابت ويقين ومطلق؟، هل يستطيع فهم الإمام النورسي للعلم وعلاقته بالإيمان وإيمانه بالإنسان الإيماني الكوني أن يساعدنا على مواجهة مشكلاتنا في عصر العولمة والإلحاد والمادية والصمود أمام هجمات الغرب الشرسة على الإسلام والمسلمين؟ بعبارة أدق هل لنا في هذا العصر من رؤية نورسية مستقبلية لأسس التقدم والرقي حيث يكون لها دورها الفعال في بعث الأمة الإسلامية من جديد؟

هل يكفي إذا أردنا لهذه الأمة بعثا جديدا ووجودا مؤثرا أن تكتفي بهذا البعد التنظيري الذي يؤكد على ضرورة الإيمان بالعلم والانسجام مع السنن الكونية؟ أم أن الأمر يحتاج إلى تفعيل هذه الرؤية الإيمانية وتحويلها من رؤية نظرية إلى واقع وسلوك ونتائج.

يؤكد النورسي على هذا البعد التطبيقي حيث يشير إلى أن الرؤية التكاملية الشاملة للعلم هي التي تحوله من رؤية نظرية إلى واقع مؤثر في حياة البش حين يصبح جزءا لا يتجزأ من سلوكهم وحياتهم اليومية فتصبح حركة الإنسان فاعلة ومؤثرة ومغنية للوجود الحضاري للبشر ويصبح العلم الإيماني بمفهومه الشامل مدخلا تأسيسيا في الإصلاح والتجديد وبعث الأمة من جديد.

رؤية نورسية مستقبلية لأسس بعث الأمة الإسلامية :

في الواقع أن النورسي لم يؤلف تلك الرسائل ولم يناقش ويحلل الكثير من المسائل والقضايا التي وردت في ثناياها ليضع أطرا نظرية أو يؤصل نظرية فلسفية حتى وإن ارتبطت بالدين، لكنه ألف وكتب لأنه عاش فترة صراع الأمة الإسلامية مع أعدائها وحمل هم الأمة وهم الحضارة والنهضة الإسلامية وهم الإنسان المعاصر الذي اشتدت وطأة مشاكله النفسية، وتعاقبت عليه الأزمات والمشاكل وأصبح يشعر بغربة وعزله أفقدته الثقة في كل شيء، وتساءل النورسي في حيرة أن هذا التقدم العلمي والتكنولوجي وهذا الكم الهائل من المعلومات والمعارف المكتسبة كان كفيلا بأن يحل للإنسان أكثر مشاكله ويساعده على استيعاب غاية خلقه وفهمه للطبيعة فهما صحيحًا، لكن كل ذلك لم يتحقق، ومني بالإخفاق وشعر بوحشة وغربة وانقطع عن التواصل مع الأقارب والأصدقاء المقربين. كان النورس يشعر في قراره نفسه بعمق الأزمة، وخطورة الموقف الإسلامي العام في اللحظة التاريخية التي عاصرها بوعي وهمة عالية لذلك

حدد بدقة الأسس والقواعد التي من شأنها إذا طبقت تطبيقًا صحيحًا أن تعيد للأمة الإسلامية مكانتها وعظمتها وهي:

١- إبراز دور العلم بمفهومه الإيماني والكوني والإنساني وقد سبق لنا توضيحه.
٢- تفعيل الرؤية الواقعية لوسطية الإسلام ودوره الحضاري.
٣- دعم الدور العلمي الأخلاقي لإنسان الإسلام.

ففيما يتعلق بوسطية الإسلام يشير النورسي إلى الإسلام بمفهومه العالمي الشمولي والذي يحمل رسالة وسطية. وهي بحكم هذه الوسطية تخطت حدودها الجغرافية والطبيعية والثقافية واستوعبت الجغرافيا الحضارية والثقافية لأمم الأرض جميعا وبطبيعة الأمة الوسطية فقد دخل في حوار عالمي مع الناس على اختلاف مذاهبهم وأعرافهم وأعراقهم وألوانهم وأجناسهم ولم يكن ذلك إلا من منطلق الهداية والتعارف بين الناس جميعًا والاستخلاص والتعمير لهذا الكون. وإذا كان العلم في هذا العصر قد أصبح عالميا، والإنسان في سبيله ليتحول في رؤيته ومنهجه وحركته وتأثيره لكي يكون عالميًا، فإن الأمة الإسلامية لكي تؤدي دورها الحضاري العالمي. باعتبارها رسالة للعالمين ينبغي أن يرتفع وعيها للعلم والإنسان إلى مستوى عصر العالمية والحضارة الكونية بأدواتها المنهجية والمعرفية والثقافية والتكنوإلكترونية. وهذا يعني التحول في الرؤية والمنهج سواء فيما يتعلق بطبيعة ووظيفة العلم والإنسان - وهذا ما فعله النورسي في تحلليه لهذين المفهومين في العصر الحاضر وعدم الاتجاه إلى الماضي والاستغراق فيه أنه يوظف العلوم الحديثة توظيفا دقيقا لخدمة القرآن الكريم والدعوة الإسلامية ويستثمر النصوص القرآنية استثمارا معاصرا مقنعا يسلم به العالم والمتعلم إنه يورد القضية أو الشبهة محللا إياها مؤيدا أو معارضا بالاستناد إلى الأدلة والبراهين المنطقية والنصية مما يفحم المعارض أو المتشكك.

أما فيما يتعلق بتحول هذا الفكر إلى مشروع واقعي. فقد تحقق بالفعل من خلال إنتاج مناهج وطرق تعليم وتربية أخلاقية واهتمام بعلوم عصرية في مدارس منتشرة في جميع أنحاء العالم تسمى (مدارس النور) أنها تعمل على جعل العلم والإنسان والإسلام قوي للتحول والتغير العلمي فتحقق عالمية الإسلام الحضارية التي تنشر قيم السلم والرحمة والعدل والمساواة والتسامح والحرية والعدالة باعتبارها قيم أخلاقية واقعية في مؤسسات وهيئات ومراكز، وكذلك في وعي وثقافة وضمير العالم وليست مجرد

شعارات ورؤى خيالية ليس هذا فقط وإنما تحويل مثل هذه القيم إلى قوة دافعة بالتماس القدوة من خلال أسماء وصفات الله تعالى.

أما فيما يتعلق بدعم الدور الأخلاقي لإنسان الإسلام ودور مدارس النور في تكوينه النورسي يؤكد أن البعث الحقيقي للإسلام كحضارة وثقافة لن يتحقق ما لم يكن هناك إنسان تنمو فيه معاني الخلافة (في الأرض) يحمل الأمانة بكل صدق ومسئولية، إنسان تنتظم في وعيه وفكره مفاهيم الإيمان العقائدي فيؤدي ذلك إلى تعميق البعد العبادي والروحي والاتصال بالله سبحانه وتعالى كي تصبح العبادة جزءا من سلوكه وتعبيرا عن جوانب حياته فلا انفصام بين فعل وقول، أو شكل ومضمون أو فكر وسلوك، إنسان تكتمل رؤيته المعرفية ومنهجيته الفكرية حين تستقيم رؤيته للكون والحياة ويتخذ من العلم وسيلة لأن ينفذ في أقطار السماوات والأرض بحثا عن الحق أو الخير. إنسان يملك من الحرية وقوة الإرادة والولاء لله وحده ، والإيمان بالرسالة السماوية ما يجعله قادرًا على تحرير نفسه من العبودية وعلى التضحية والبذل والعطاء بالغالي والنفيس حتى تتمكن هذه الأمة من أداء رسالتها في القيادة والأعمار والهداية للبشرية.

إنسان لا ينعزل في صومعة عباده أو محراب علم، بل إنسان يتفاعل مع الآخرين فرادى وجماعات مؤمنا بثقافته وتراثه وتاريخه، يستخدم من أدوات عصره وآلياته ما يمكنه من إرسال رسالته إلى العالم أجمع وهي رسالة حب وتعاون وتسامح واحترام للآخر أيا كان مذهبه أو جنسيته أو قوميته أو شكله أو لونه.

وإذا كان الإنسان هو مخزن تلقي العلم، فإن أساس هذا العلم وقوة هذا الإنسان إنما تكمن كما يؤكد النورسي- في الإيمان بالله وتحقيق العبودية الكاملة له "أن محور النجاة ومدارها الإخلاص، فالفوز به إذن أمر غاية الأهمية لأن ذرة عمل خالص أفضل عند الله من أطنان من الأعمال المشوبة، فالذي يجعل الإنسان يحرز الإخلاص هو تفكره في أن الدافع إلى العمل هو الأمر الإلهي لا غيره، ونتيجة كسب رضاه".[1]

والنورسي هنا رغم توجهه دائما نحو الإنسان إلا أنه لا يعني بالإنسان الفرد لأنه يؤكد دائما أن الإسلام هو دين الجماعة، وأن هذا العصر هو عصر الجماعة وليس عصر أو زمان الشخصية الفردية، ويشير بديع الزمان إلى أن هذه المجموعة التي تمثل المهدي

---

(١) النورسي: اللمعات ص١٣٧.

أو طلاب رسائل النور الذين يحملون تبعة عمل القرآن وفعله في هذا العصر خاصة فعله في إنقاذ الإيمان حيث يتطلب منهم معاملة الساسة ورجال الحكم معامله تقوم على المهادنة في مرحلة إنقاذ الإيمان، بل والبعد عنها كلية لأنها قد تفشل عمل الطلاب المخلصين لإنقاذ الإيمان ولذلك نراه يستعيذ بالله منها يقول "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة"[١]

ويؤكد أن المستقبل سيكون لهؤلاء المخلصين من الطلاب الذين سيحملون راية الإسلام والعلم والتقدم في سائر أرجاء الكون إذ يقول "وسيعتلي الإسلام عرش الحقائق والمعارف، وستسطع شمس الإسلام التي حجبها سوء الفهم وتوهم مناقضة الإسلام ومخالفته لحقائق العلوم".[٢]

يركز النورسي على حقيقة هامة تتعلق بأهمية الجانب الأخلاقي في مجال العلوم المختلفة وأيضا العلماء إذ يقول أن الإنسان قد يتقدم في مجال العلوم والمعارف كلما امتد به الزمن ذلك أن أداة المعرفة والعلم هي حركة الفكر والعقل في اجتياز معلوم إلى معلوم آخر في حركة أشبه ما تكون بالحركة الدائمة الذاتية، أما فيما يتعلق بالأخلاق والمبادئ والقيم فإنها على العكس من حركة العلم، كلما امتد الزمن بالإنسان وتعرض لتطورات المعايش واختلاف أسبابها كلما تراجع في ذلك إلى الوراء، لأن التقدم المادي والازدهار المعاشي من شأنهما أن يغريا الإنسان ويزجا به إلى حالة من الاستمتاع والترف والاستكبار والاعتداد بالقوة والغرور والتنكر بموازين العدالة والحق. وهنا تظهر دعوة القرآن إلى تحكيم المبادئ والقيم واستخدام القوة لحماية الحق، وإحلال التعاون محل الاستبداد.

هكذا يؤكد بديع الزمان أن الطريقين: طريق التقدم في العلوم والمعارف، وطريق التقدم على سلم الأخلاق والقيم الإنسانية والرفيعة واللذين جمع بينهما النص القرآني هما من أساسيات بناء الفرد والجماعة. مهما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال في المجتمعات، فهو يؤسس رؤيته المستقبلية للأمة الإسلامية على قيم أخلاقية متينة من التعاون بدلا من الصراع وكسب رضا الله ونيل الفضائل بدلا من التسابق المحموم للاستحواذ غير المشروع على خيرات الأرض والسماء والإسراف في استعمالها، ونصرة

---

(١) الكليات ص٣١٦.

(٢) الكليات ص ٣١٦.

الحق دون الاستعلاء بالقوة، ونبذ العنصرية والقومية والسلبية، وإقامة الوجود الحضاري للأمة الإسلامية على السلام والخير والتعارف كما يؤكد ضرورة التعامل مع المنجزات العلمية على أنها توظف لأهداف أخلاقية، لأن العلوم في دلالاتها المعنوية توضح آفاق أسماء الله الحسنى ولابد من التعامل معها وفق مقتضيات الإيمان بهذه الأسماء. فتكون دافعا لعمل الخير ومنبهه للاحتراز من الشرور والضلال.[١]

المراجع

- روجية جارودي: الإسلام في الغرب ص١١، ١٢.
- سعيد رمضان البوطي. ظاهرتان تبعثان على الدهشة في كتاب الله عز وجل. المؤتمر الرابع للنورسي ١٩٩٨. ص ٣٦٣- ٣٦٥.
- السيد ياسين: الحرب الكويتية – عاصفة سبتمبر ص ٢٣، ١٢٩ – ميريت للنشر . القاهرة ٢٠٠٣ .
- شكران واحده: كتاب الكون: موقعه وتطوره في فكر بديع الزمان. ص ٥٤٥ إلى ص ٥٦٠. المؤتمر الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي. استانبول ١٩٩٨.
- الطيب برغوت: منهج النبي (صلى الله عليه وسلم) في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها. ط١. منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي ١٩٩٦ ص ٨١.
- عبد العزيز برغوث موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف ص ٣٨، المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي . إستانبول ١٩٩٨.
- فاروق حمادة: الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي. منشور ضمن أعمال مؤتمر جهود بديع الزمان النورسي في تجديد الفكر الإسلامي الرباط ١٩٩٩.
- فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ – ترجمة حسين أحمد أمين ص ٢١ وما بعدها، مركز الأهرام للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٣، فرانسيس فوكو ياما: نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ترجمة د٠ أحمد مستجير ص ١١٨، القاهرة ٢٠٠٢
- النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٢.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٢.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣.

(١) الكلمات ص١٤٥، المكتوبات ص٥٤٢.

- النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٣.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، استانبول ١٩٩٤.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي. مطبعة الزهراء ، الموصل ١٩٨٨..
- النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٥.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٥.
- النورسي، بديع الزمان سعيد، سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، استانبول ١٩٩٥.
- يامنة مرمر. مكانة التأويل في العلم ص ٥١٥ ص٥٢٠. المؤتمر الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي. استانبول ١٩٩٨.